بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

منذ أن شرعت فى تقديم هذه الموسوعة قررت أن أقدم كل جزء بمقدمة بها أشارات إلى أهمية هذه النصوص، وأن هذه النصوص يمكن أن نطلق عليها ترسيبات الثقافة السلوكية، وهى تساعد بلا شك على خلق تواصل بين الأجيال فى أجواء من الهدوء وإمكانية التطور والتغيير فى أطار قيم المجتمع وتقاليده. كما حرصت أن أشير إلى أن هذه النصوص تقدم مادة ثرية للدراسات النفسية والإجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وكافة أوجه النشط البشرى بل وحتى المفاهيم الطبية. .

ففى الجزء الأول أشرت إلى ضرورة الجمع الميدانى بعيدا عن تلك النصوص الموجودة فى المجموعات السابقة باعتبار أن الجمع الميدانى هو الإضافة الحقيقية للمجموعات السابقة فضلا عن ضرورة انتزاع النصوص من فم الزمن الذى يطوى كل شىء وتقديمها للاجيال اللاحقة. . وفى مقدمة هذا الجزء قدمت عرضا للمجموعات السابقة منذ نهاية القرن التاسع عشربداية من مجموعة محمود عمر الباجورى وانتهاء بمجموعة من الأمثال نشرها دير الدومنيكان بالقاهرة، وهى مجموعة خاصة بأمثال الاسرة. . وتحدثت عن المصدر الميدانى لهذه النصوص وهى مدينة زفتى ـ مسقط رأسى ومثوى رفاتى عندما يحين الحين ـ وقلت إنها تتوسط تماما الوجه البحرى وتقع على الشاطئ الغربى للنيل فرع دمياط وهو ما يعنى أن هذه النصوص الشائعة تمثل قلب الريف بكامله أصدق تمثيل بريفه وحضره على السواء، ولا أبالغ لذا قلت أنها تمثل الوجه البحرى بكامله باستثناء الأطراف والشواطئ، فالاطراف تمثل البداوة والشواطئ تمثل مراكز الإحتكاك مع العالم الخارجى، وهما يمثلان شريحة ضعيفة لا تؤثر فى جسم الوجه البحرى ومعه القاهرة بملايينها. أى أن هذه النصوص تمثل مصر كلها على وجه التقريب. .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن الشروح التى ألحقتها بالنصوص باعتبار أن هذه الشروح يمكن أن تفسر تيار العلاقات الإجتماعية ضمن الإيقاع اليومى للأحداث. . ،وبخصوص التصنيف فقد أعتمدت على أن المادة النصية هى التى تصنف نفسها بنفسها مع التركيز على الجانب الموضوعى الذى يستهدف النص، كما أبديت تساؤلا عن أهمية هذه النصوص فى العصر الحاضر، عصر الإيقاع السريع والتغييرات الحادة وانتشار الاذاعة المسموعة والمرئية وسيطرتها على عقول الجماهير. .

أما فى الجزء الثالث فقد تحدثت بشىء من التفصيل عن أسلوب الجمع والشفاهية ومشاكل النص الشفاهى الذى يخضع لقوانين الذاكرة، وهى تختلف من شخص إلى آخر ومن مكان إلى آخر ويخضع أيضا للمدة الفاصلة بين السماع والاسترجاع، وأيضا مشكلة الإضافة والإحلال والتلفيق إلخ، كما أشرت إلى مشكلة الغموض فى القليل من النصوص وخاصة النصوص المحلية، وأيضا مشكلة التفسيرات المختلفة للنص وهو ما يفرض بالضرورة تسجيل كل التفسيرات الممكنة. وفى مقدمة هذا الجزء ـ الجزء الرابع ـ نستكمل بعض الأفكار والخواطر، وقبل هذا ترى من المناسب أن نشير إلى أفكار القدماء ونسجل بعضا من جهودهم فى رصد الأمثال وتسجيلها. .

* * *

الأمثال فى فكر القدماء:

المعروف أن هذه النصوص تدخل ضمن الحركة الثقافية غير المتعمدة أو المقصودة لأنها تخرج عفو الخاطر وبشكل تلقائى وأقرب إلى الفطرة، كما أن المثل عبارة عن جملة أو جملتين ولا يصل إلى أن يكون مقالا أو قصيدة أو غير ذلك من مظاهر الأدب رغم ما يتميز به من كثافة المعنى وتركيزه، وربما كانت هذه الظواهر هى أحدى الأسباب التى دفعت العلماء للعزوف عن الإقتراب من هذا الموضوع أو الإهتمام به. .

ولكننا نعتقد أن السبب الأهم فى عزوف العلماء عن تسجيل هذه النصوص بالكثرة المناسبة لهذا التاريخ الممتد لمئات السنين هو أنهم ـ أى العلماء ـ يعيشون فى

كنف الحكام وفى مستوى ثقافى خاص ويتعاملون.. ويتعايشون ضمن شريحة محدودة وليس لدى بسطاء الناس والعاديين ما يثير فضول العلماء..

يقول الجبرتى فى مقدمة كتابه/ تاريخ الجبرتى/[1] «وفن التاريخ علم يندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها.. منها طبقات المناوى والقراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاه والحكماء وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار المغازى وطبقات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبر والأمثال وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان ومنه كتب المحاضرات ومفاكهة الخلفاء وسلوان المطاع ومحاضرات الراغب. فهذه العناصر هى محل اهتمام العلماء وتلمح مصطلح «الأمثال» ضمن هذه الإهتمامات.. كما أن الإهتمام بالأمثال قديم حيث سجل العلماء أن ما جاءنا من العصر الجاهلى من آداب تتمثل فى الشعر والنثر والأمثال، ومع ذلك فإن ما سجله القدماء من نصوص الأمثال عبارة عن كمية من النصوص لا تناسب تلك القرون السابقة ولا تتكافأ مع الكم الضخم من نصوص الشعر والنثر.. وربما كانت هناك أسباب عديدة فى حاجة إلى دراسة..

وأهم هذه الكتب هو كتاب «مجمع الأمثال» للميدانى[2] الذى يقول فى مقدمته «طالعت من كتب أئمة الأعلام.. كتاب أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمه حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا ونخلت ما فيها فصلا فصلا وبابا مفتشا عن ضوالها زوايا البقاع.. ونقلت ما فى كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب.. وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم فى أوائلها ليسهل طريق الطلب على متناولها وذكرت فى كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغلق ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويسيغ الشَّرق مما جمعه عبيد بن شريه وعطاء ابن مصعب والشرقى بن القطامى وغيرهم.. وسميت الكتاب «مجمع الأمثال»

(١) تاريخ الجبرتى/ عبد الرحمن الجبرتى/ نشر مطبعة الأنوار للحمدية.

(٢) مجمع الامثال/ أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ طبع الحلبى ١٩٧٨..

لاحتوائه على جميع ما ورد منها وهو ستة ألاف ونيف والله أعلم بما بقى منها، فإن أنفاس الناس لا يأتى عليها الحصر ولا تنفذ حتى ينفذ العصر»..

وجاء فى كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردى[1] تعريفه للامثال: «وللأمثال من الكلام موقع فى الأسماع وتأثير فى القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن المعانى بها لايحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة.. فلذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لأنها فى العقول معقولة وفى القلوب مقبولة.

ولها أربعة شروط **أحدها**: صحة التشبيه، **والثانى**: أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا **والثالث**: أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء فى استخراجها ولا كد فى استنباطها **والرابع**: أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا. فاذا اجتمعت لهذه الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للأفهام.

وجاء فى كتاب «المستطرف فى كل فن مستظرف» **الأبشيهى**[2] قوله «أعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم فى إيراده وأصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل، وسنذكر أن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب المولدين والعامة»، وفى هذا المجال استعرض الابشيهى أمثال من كتاب الله تعالى وأمثال من الحديث النبوى الشريف، وأمثال العرب وأمثال العامة والمولدين، والأمثال من الشعر المنظوم والأمثال السائرة بين الرجال والنساء على حروف المعجم «كالاتى: أمثال كتاب الله ٥٢، أمثال الحديث النبوى ٣١، أمثال العرب ٩٩، وأمثال العامة والمولدين ٦٦، أمثال من الشعر ١٦٥ بيتا،

(١) أدب الدنيا والدين/ على بن محمد بن حبيب الماوردى توفى ٤٥٠هـ طبع ١٣١٦هـ/ هامش كتاب الكشكول للعاملى ص ٢٣١.

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف/ شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهى ت ٨٥٠ هـ/ نشر مكتبة الجمهورية..

والأمثال السائرة بين الرجال والنساء ٣٥٤ مثلا، والمجموع ٧٦٧ مثلا، وهى مليئة بالأمثال التى ظلت شائعة حتى هذه الأيام مما سوف نشير إليه بعد قليل..

أما كتاب «العقد الفريد»[١] لابن عبد ربه الأندلسى فقد أفرد فصلا كاملا عن الأمثال جاء فيه: «نحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثال التى هى وشى الكلام وجوهر اللفظ وحلى المعانى والتى تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها فى كل زمان وعلى كل لسان، فهى أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يسر شىء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل «أسير من مثل» وقال الشاعر.

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه وضربها الرسول ﷺ فى كلامه. قال الله عز وجل «يا أيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له».. وقد رتب المؤلف أمثاله فقال: أول ما نبدأ به أمثال رسول الله ﷺ ثم أمثال العلماء ثم أمثال أكثم بن صيفى وبزرجمهر الفارسى وهى التى كان يستعملها جعفر بن يحيى فى كلامه ثم أمثال العرب التى رواها أبو عبيد وما أشبهها من أمثال العامة، ثم الامثال التى استعملها الشعراء فى أشعارهم فى الجاهلية والاسلام.. وقد قسم هذه الامثال إلى ١٨٢ موضوع أو جزئية صغيرة وكلها تقع تحت عناوين كبيرة هى: أمثال الرسول ص ٦٣، أمثال العلماء ص٦٦، أمثال أكثم بن صيفى وبزرجمهر ص ٧٦ أمثال العرب مما روى أبو عبيد ص ٨١، أمثال الرجال واختلاف نعوتهم ص ٩١، أمثال الجماعات وحالتهم ص ٩٩، الأمثال فى القربى ص ١٠١، الأمثال فى مكارم الأخلاق من ص ١٠٤ : ١٣٦، أمثال مستعملة فى الشعر ١٤٠..

من هذه الإشارات السابقة يمكن أن نتوقف عند قول الميدانى أنه بعد أن جمع ستة الاف مثل أضاف إلى ذلك قوله «والله أعلم بما بقى فإن أنفاس الناس لا يأتى عليها الحصر» بمعنى أن الامثال كثيرة مثلها مثل أنفاس الناس التى لا يجرى عليها الحصر، وهذه الاشارة كانت كفيلة بدفع العلماء إلى تسجيل هذه النصوص الطائرة والمثبوتة والتى تزيد على عشرات الآلاف فى هذه القرون الكثيرة..

(١) العقد الفريد/ أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى ت ٣٢٧هـ طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٥/ وشرح/ أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابيارى/ ص ٦٣ : ١٤٠ جـ٣.

ونحن نتوقف ثانيا عند قول ابن عبد ربه الأندلسى عن الأمثال أن العرب تخيرتها، وأنها ـ أى الأمثال ـ أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة ولم يسر شىء سيرها ولا عم عمومها» وهى أشارة تتسم بالذكاء وتعنى أنه إذا كان الشعر ديوان العرب فإن الناس يؤثرون الأمثال وأنها أكثر التصاقا وأبقى بين الناس من الشعر مما يعنى أنها تسير بين كافة فئات الناس دون استثناء بينما يقتصر انتشار الشعر على شريحة خاصة داخل المجتمع..

* * *

الامثال المصرية بين القديم والجديد:

نحن نعتقد أن المنظومة الفكرية المصرية عبارة عن نظام ممتد، ولا يتكون من طبقات فوق بعضها ـ كما ينادى البعض ـ ذلك أن الطبقات عبارة عن شرائح أو صفائح أو رقائق فوق بعضها تتميز وتختلف مثلما هو كائن فى الطبقات الصخرية التى يمكن رؤيتها بوضوح عندما تنشطر كتلة ضخمة من الجبل فتبين الطبقات بوضوح فى شرائح: إحداها صفراء يميل إلى الأبيض والأخرى خشنة لونها ترابى وثالثة واضح عليها عوامل التعرية بالتآكل ورابعة متماسكة وهكذا، بينما نجد أن المنظومة الفكرية المصرية عبارة عن بناء فكرى مصرى أشبه ما يكون بالشجرة الممتدة من الجذور إلى الأوراق وتعيش على مصدرين أساسيين هما التربة والماء، أو المصدر الفرعونى القديم والمصدر الاسلامى الموجود منذ أربعة عشر قرنا حتى اليوم ويمكننا أن نلحظ هذه الظاهرة فى نصوص الأمثال أو فى تلك الحكمة السائرة بين الناس وتنتقل إلى سلوكهم بتلقائية.. ومقارنة بسيطة بين مجموعة من الأمثال تؤكد هذه الحقيقة..

* يقول النص القديم: من استحل حقوق الناس حراما أخذ الحرام معه الحلال وذهب[1].

ويقول النص الحديث: جِبت الحرام على الحلال يكبَّره قام الحرام خد الحلال وطيَّره..

(١) الحكم والامثال عند المصريين القدماء/ محرم كمال ـ المكتبة الثقافية ص ٢٦.

* ويقول النص القديم: أن الكلمات التى يقولها الناس شىء والأشياء التى يفعلها الله شىء آخر[1]..

ويقول النص الحديث: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

* ويقول النص القديم: والرب هو الذى خلق الانسان ويقدر له نصيبه فى الحياة[2]..

ويقول النص الحديث: اللى خلق الأحناك متكفل بالأرزاق

وإذا أردنا تتبع هذا فاننا سنجد نصوصا كثيرة فى هذا الاتجاه..

أما المصدر الاسلامى والعربى فاننا نعيش به فى أنفسنا كأفراد وجماعات ونسمعه فى كل مكان مما يمكن أن يكون محل دراسة مستقلة.. ولكننا فى هذا المجال نكتفى بتلك الأمثال التى لها علاقة بالقضايا الاجتماعية والسلوكية.

فقد جاء فى كتاب «العقد الفريد»[3] مجموعة من الأمثال التى لا تختلف عن الأمثال السائرة بيننا حتى الآن ومن ذلك:

المثل القديم	المثل الحديث
تباعدوا فى الديار وتقاربوا فى المحبة	أبعدوا حبة تزيدوا محبة
كما تدين تدان	داين تدان
إذا زل القدر عمى البصر	ساعدة القضا يعمى البصر
القناعة مال لا ينفذ	القناعة كنز لا يفنى
خير الغنى غنى النفس .	الغنى غنى النفس
كل ممنوع مرغوب فيه	الممنوع مرغوب
لكل مقام مقال	لكل مقام مقال ولكل سؤال جواب
شر العمى عمى القلب	أعمى قلب
العادة طبع ثان	العادة طبع ثانى
الغايب حجته معاه	الغايب حجته معاه.. إلخ

(١) الحكم والأمثال عند المصريين القدماء/ محرم كمال/ المكتبة الثقافية/ ص١٢٢..

(٢) العقد الفريد/ ابن عبد ربه الأندلسى/ مصدر سابق.

أما فى كتاب المستطرف «للأبشيهى»[1] فهناك العديد من الأمثال الشعبية مازالت منتشرة حتى الان نذكر منها:

المثل القديم	المثل الحديث
* يا غزالة الأقمار أين كنتى بالنهار	يا غزالة الأقمار إيش حاشك بالنهار
* نواية تسند الجرة وتسند الزير الكبير	نواية تسند الجرة قال: وتسند الزير الكبير
* لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفاى	لولاك يا لسانى ما انسكيت ياقفاى
* شرا العبد ولا تربيته	شرا العبد ولا تربيته
* ضربتين فى الراس تعمى	ضربتين فى الراس توجع
* ضرب وبكى وسبق واشتكى	ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى

وهذا يشير إلى أن الكثير من الأمثال العربية القديمة مازالت تلعب دورا واضحا فى حياة الناس بل أنهم يرددون الأمثال بنصها القديم منذ مئات السنين وهو ما يؤكد أن الثقافة المصرية لم تتكون من طبقات منعزلة تجمدت عند مستوى معين ولكنها أفكار ممتدة من الماضى البعيد والقريب إلى الحاضر المعاش، ولاشك أن المصدر العربى يمثل نهر النيل فى تدفقه يغذيه جدول فرعونى.

* * *

الدور الوظيفى للمثل وعلاقته بالشخصية:

أحيانا يسبق المثل التقديم المناسب فيقال: «صدق من قال» وهو ما يعنى أن الأمثال عبارة عن قطع من الحكمة الصادقة والمؤيدة لضارب المثل أو ما يريد أن يقوله، ويقال أيضا «على رأى المثل»، وهو ما يعبر عن اعلان باتجاه الرأى المثلى أو تصديق له أو إيمان بما يقوله وهو بلغة القانونيين أسانيد للرأى، وما يعنى أيضا أن الأمثال تعبر عن اقتناع القائل بمضمونها مما يمكن أن يكون المثل كوحدة مفردة محل دراسة مستقلة.. وكيف يكون الحال إذا وضعنا الأمثال بجانب بعضها فى وحدة فكرية واحدة إننا بذلك نستطيع أن نرى التيار الفكرى الخفى الذى يحرك الناس ويكشف الدوافع وما هو كامن فى الشخصية.. ومما لاشك فيه أن معرفة

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف/ جـ١.

النفس أو معرفة المجتمع من الأمور الشاقة وخاصة بالنسبة للمجتمع المصرى، وهذه الأمثال هى أحدى بل أهم وسائل الاقتراب الحقيقية من الشخصية المصرية لأنها:

أولاً: تعبر عن فلسفة مجتمع بشكل صريح وتلقائى وهى ليست ثقافة ساذجة ـ كما قد يدعى البعض ـ ولكنها عندما تأتى عفو الخاطر أنما تحمل خبرات ثقافية اختزنها اللاشعور عن طريق المعاشرة والسماع وتطفو على السطح عند الحاجة..

ثانيا: تسير بين جميع طوائف الشعب دون استثناء مما سوف نشير إليه فيما بعد..

ثالثا: ترتبط بالإيقاع اليومى بين الناس فى نشاطاتهم وحتى فى أوقات راحتهم ولا ينصرفون عن هذه النصوص إلا عندما يركنون إلى النوم..

رابعا: هذه الامثال تحمل كافة القيم الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، كما أنها ذات حيوية شديدة فى الربط بين الماضى وايقاع الحاضر وتؤدى دورها الأخلاقى والتوجيهى..

خامسا : هذه النصوص تعبر عن نوعية الثقافة الشعبية المازجة بين كافة الطوائف، وتكاد تنفرد بهذه الخاصية على سائر ألوان التعبير الشعبية لأنها تعبيرات سارية فى كل الأوقات وفى مختلف الإماكن والأزمنة وهو مالا يتوافر لسائر النصوص الشعبية التى لا تظهر إلا فى المناسبات المتباعدة ولكنها فى كل الاحوال لا تظهر بشكل يومى كما يحدث مع الأمثال، وهو ما يميز الامثال عن غيرها فضلا عن ارتباطها بمشاكل الناس الحياتية فى جانبيها المادى والروحى..

سادسا : هذه النصوص عبارة عن شواهد ثقافية على القيم السائدة كالعادات والتقاليد والأعراف وتقوم بدور الموجه العام للسلوك أو هى دستور للعلاقات القائمة بين الإنساق الثلاثة فى المجتمع وهى الفرد والجماعات كوحدات والمجتمع ككل، وهى فى النهاية تعبر عما ينبغى أن يكون بشكل عام، ولذلك فهى تقوم بدور توجيهى بالنقد أو السخرية أو التحذير، وباختصار فهى المدخل الحقيقى لدراسة الشخصية المصرية التى لم تخضع للدرس حتى الآن..

وفى هذا المجال من المفيد أن نفرق بين شخصية مصر والشخصية المصرية، فشخصية مصر يمكن أن تظهر ضمن المتابعة التاريخية وشخصية مصر يمكن الكشف عنها عن طريق الجغرافيا أو التاريخ أو السياسة كما فى موسوعة شخصية مصر التى كتبها د. جمال حمدان، ويمكن حصر ذلك من متابعة فهارس الأجزاء الثلاثة وهى كالاتى:

* **الجزء الأول:** ويقع فى ٨٤١ صفحة ويتحدث عن:

- شخصية مصر الطبيعية
- من الجيولوجيا إلى الجغرافية
- الصحراوات
- وادى النيل

* **الجزء الثانى:** ويقع فى ١٠١٨ صفحة ويتحدث عن:

الباب الأول:

شخصية مصر البشرية ـ التجانس ويشمل التجانس الطبيعى
التجانس المادى ـ التجانس العمرانى
التجانس الحضارى ـ التجانس البشرى

الباب الثانى: الوحدة السياسية ـ من السبق الحضارى إلى التخلف من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية..

الباب الثالث: شخصية مصر السياسية ـ من إمبراطورية إلى مستعمرة الاستعمار الأوربى الحديث ـ شخصية مصر الإستراتيجية.

الباب الرابع: قلب العالم ـ موقع مصر الجغرافى ـ هبة النيل

* **الجزء الثالث:** ويقع فى ٩٧٣ صفحة ويتحدث عن:

- **الباب الأول:** شخصية مصر الاقتصادية: خريطة الاقتصاد المصرى ـ الزراعة المصرية من الخريطة إلى التخطيط ـ من التوسع الرأسى إلى الإفقى ـ مصر الصناعية ـ صناعات مصر ـ الصناعات الزراعية الأم ـ صنع فى مصر ـ من الصناعات الكيماوية إلى المعدنية ثروتنا المعدنية وصناعة التعدين..
- **الباب الثانى:** خريطة المجتمع المصرى (كثافة بلا هجرة ـ مركزية رغم الإمتداد)..

• **الباب الثالث:** آفاق الزمان وأبعاد المكان. .

تعدد الأبعاد ـ التوسط والإعتدال ـ الإستمرار والانقطاع. .

• **الباب الرابع:** مصر والعرب

بين الوطنية المصرية والقومية العربية ـ مصر فى عالم عربى متغير

هذا وقد كتب د. جمال حدان فى موضوع الشخصية الإقليمية ص ٣٢ يقول: «أنها دراسة عن شخصية مصر لا المصريين ـ عن شخصية مصر لا الشخصية المصرية» بمعنى أن مادة هذه الموسوعة هى دراسة لشخصية مصر البلد أما الإنسان ككائن حى ضمن مجتمع فيحتاج إلى دراسات أخرى يمكن أن تكون مكملة لدراسة شخصية مصر التى كتبها د. جمال حمدان. .

وفى هذا المجال يمكن أن نقول أن الجغرافيا والتاريخ يدخلان ضمن العوامل المؤثرة فى الشخصية ولكنهما لا يكونان الشخصية. ذلك لأننا إذا قلنا إن المكان هو المكون للشخصية فاننا نقول أن الأرض الأمريكية هى التى كونت الشخصية الأمريكية، والأرض الألمانية هى التى كونت الشخصية الألمانية والأرض الإيطالية هى التى كونت الشخصية الإيطالية وهكذا ـ وبناء على ذلك فان الذى يعيش على أرض معينة لابد أن يتقدم أو يتأخر تبعا لموقع الأرض وهو المبدأ الذى يروج لمقولة «الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان» أو «الشمال والجنوب»، وهو تفكير عنصرى أحادى النظرة يدعو إلى التميز الأبدى، وهذا الرأى عبارة عن مغالطة كبرى فالجغرافيا عبارة عن مكان فوقه طبقات جوية يعيش عليه جماعة من البشر وهذه الظواهر ثابتة منذ عشرات الآلاف من السنين. . بينما نجد أن الحضارات تنتقل من مكان إلى آخر ولم يحدث طوال التاريخ البشرى أن توطنت الحضارة فى مكان واحد، وفضلا عن ذلك فإن البشر فى المكان الواحد يتعرضون طوال تاريخهم لفترات من التقدم والتأخر وليس للمكان تأثير كبير فى هذا الشأن وهو ما يجعلنا نقول «أن البشر هم أساس الحضارة». .

وهذا ما يدعونا إلى أن نستكمل ما بدأه جمال حمدن بأن ندرس السكان أو البشر كجماعة تعيش وتتحرك وهم الأساس والعنصر المحرك للحضارة. ونحن نؤكد أن الثقافة السائرة هى المدخل الحقيقى إلى معرفة أبعاد الشخصية. .

قرأت فى بريد الاهرام ١٧/ ١١/ ١٩٩٤ رسالة طريفة بقلم د. فاخر محمود العسيلى/ دكتوراه فى التخطيط الإستراتيجى ومقيم بولاية الينوى/ أمريكا ـ يقول فيها: «. . . ونحن فى مصر علينا أن نعيد إلقاء الضوء وبتركيز على خماسية التنمية لدينا، وأعنى بها: (نهر النيل ووادية + الصحراوات الشرقية والغربية وسيناء ٩٦٪ من مساحة مصر + البحر الاحمر والمتوسط + قناة السويس + ٦٠ مليون وحدة رأسمالية بشرية منتجة، إنها جميعا بحاجة إلى مشبك يضمها فى أجندة واحدة إستراتيجية. . فمن المعروف أن مصر بهذه الثروات الهائلة يمكنها دخول صناعة المستقبل من باب الإدارة العلمية التى صارت سلاحا فعالا فى معركة التكنولوجيا والتنمية المتواصلة، كما أننا بدون إدارتها واستقلالها لا يمكن لنا انتاج شروط التقدم فى المستقبل المنظور».

والواضح أن العناصر الأربعة السابقة كلها تتعلق بالمكان أما العنصر الخامس وهو «٦٠ مليون وحدة رأسمالية بشرية» فهو فى حاجة إلى دراسة مستفيضة، ولا شك أن نصوص الثقافة الشعبية ضمن مظاهر الفكر المصرى الأخرى يمكن أن تكون مؤثرة من خلال دراسة هذا الكم من الوحدات البشرية. .

إن هذه النصوص المثلية تعطى فكرة واضحة عن الجذور الثقافية وعن العناصر الحقيقية اللازمة للتطور المناسب، كما أنها توثق الصلات بين الأجيال وتساعد على تقريب وجهات النظر بين مختف الأطراف. . وفضلا عن ذلك فهى إحدى النوافذ التى يطل منها الباحثون على نفسية الفرد المصرى ونفسية المجتمع، ثم هى تقول رأيا فى موضوع سائر أو تقدم حكمة مجربة أو تلقى ضوءا على موضوع بعينه أو تشد الإنتباه إلى تيار خافت، كما أنها ـ فى بعض الاحيان ـ تتحدث بصراحة قد لا يقبلها البعض كما تجسم الخطأ وهو ما يعد نوعا من التطهير الذاتى، وهذا هو أحد وجهى العملة. .

أما الوجه الآخر ـ وهو ما يهم الدارس ـ فهو الكشف عن الجذور الخفية أو تفسير القضايا الكبرى فى النظام الاجتماعى كالانتماء والحضارة والدين والاسرة، والأمثال فى هذا المجال أيضا تبرز كرموز عظيمة الدلالة على الهوية والتاريخ والفكر. . وهذا ما يجب أن يدفعنا إلى الحفر عند جذور الشخصية . . ونحن

نعتقد أن هذه الحلقة ـ الثقافة الشعبية وعلى رأسها المثل الشعبى ـ هى أخطر الحلقات وأهمها فى دراسة الشخصية ذلك أنها حلقة غير مرئية رغم تواجدها بين الناس.. وقد أشرنا إلى بعض أسباب الانصراف عنها، ونضيف إلى ذلك أن أصحاب هذه الثقافة لا يعرفون شيئا عن أهميتها فهم من بسطاء الناس والغلابة والمساكين الذين يعيشون يوما بيوم ويلهثون وراء اللقمة اليومية، وفضلا عن ذلك فإن هذه النصوص هائمة وليس لها مكان يجمعها..

ومن ناحية أخرى فقد دخلت الأمثال إلى الذاكرة الشعبية وانتشرت بطريقة غير مقصودة، كما أنها تسترجع من الذاكرة بنفس الطريقة وعلى قدر تأثير المحيط يكون التأثير والانتشار ومن ثم يكون الاستظهار والدور.. وحتى الآن فإن هذه النصوص لا تنتقل عن طريق الدرس التقليدى. ونحن نعتقد أن بعضا من هذه النصوص لو دخلت ضمن بعض المناهج الدراسية وخاصة تلك الامثال التى تحث على العمل وتدعو إلى الإخلاق وتبرز الفضائل المرتبطة بالشخصية المصرية نقول لو تم هذا لأدت هذه النصوص دورا هاما فى الربط بين الأجيال وساعدت بشكل مباشر فى عملية التنمية والحراك الاجتماعى وحفظت الجيل الجديد من الإنبهار بالثقافات الوافدة أو السقوط فى ألاعيب المعلومات المضللة..

* * *

أشرنا إلى أن هذه النصوص تنتشر بين كل الطبقات وهى ليست قاصرة على فئة معينة أو تخص طبقة، ونضيف فى هذه السطور القول بأنها تنتشر بين الطبقة الوسطى وطبقة المثقفين بنفس درجة انتشارها لدى الطبقات الدنيا إن لم تزد على ما لدى البسطاء من حصيلة، وهذا هو الغريب فى الأمر حتى أن جزءا هاما من مصدر هذه المجموعة هو الثقافة الإعلامية فى الصحف فكيف ذلك؟..

نحن نشير إلى أن المجتمع المصرى تقليدى النزعة يعيش فى بعض أحواله على ثقافات الماضى، وهؤلاء المثقفون وخاصة ـ جيل الخمسينات والستينات من العمر ـ هم أبناء الجيل الماضى ـ جيل ما قبل الحرب العالمية الثانية ـ وهو الجيل الذى تغلب عليه الأمية ومن ثم فقد استمد جيل المثقفين ثقافاتهم القديمة من جيل الآباء من مواليد بداية القرن العشرين أو أواخر القرن التاسع عشر واختزنوها ومن ثم تعود

بين الحين والآخر فى كتاباتهم ومقالاتهم الصحفية، وهى تمثل بالنسبة لهم مددا فكريا لا ينضب وتحمل دلالات واضحة على القضايا التى يناقشونها وهى قضايا الحياة اليومية سواء كانت سياسية أو فكرية أو إجتماعية أو إقتصادية.. وقد أشرنا في مقدمة الجزء الأول إلى بعضا من ذلك ولا بأس أن نشير إلى نماذج أخرى يمكن أن تكمل هذا الاتجاه وتدعمه وتبرز الدور الوظيفى لنصوص الإمثال على كافة المستويات:

فقد كتب دكتور/ رمزى زكى ـ مستشار بمعهد التخطيط مقالا بجريدة الاهرام يونيو ١٩٩٣ بعنوان «محاولة لتفسير حكمة مصرية قديمة وهى ـ الدين هم بالليل وذل بالنهار ـ وبعد أن شرح بطريقة بسيطة مشكلة الدين على المستوى الفردى وعلى المستوى الدولى يقول فى ختام المقال «.. وبعد أن نفذت ـللدائنين كل هذه الأمور يجب ألا تندهش إذا أمطرك الدائنون مدحا رغم أن وضعك المعيشى قد ساء بيد أنه لا يجب أن تلوم نفسك لأنك نسيت المثال الشعبى المصرى الذى جسدته حكمة الأجداد والآباء عبر مئات السنين والذى كان يقول لنا «الدين هم بالليل.. وذل بالنهار» وهو ما يعبر عن رؤية اقتصادية لأحد أعلام الاقتصاد..

وجاء فى اهرام ١/ ١٢/ ١٩٩٣ فى حديث مع فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد ما يأتى:

س: يصف البعض حزب الوفد بأنه حزب الزعيم الأوحد الذى يقدر على جمع أواصر الحزب والحفاظ على وحدته متماسكة ويربطه بتاريخه القديم فما رأيك؟

جـ : كل الأحزاب فى العالم لها زعيم واحد ولا يمكن أن ينجح الحزب فى ظل زعيمين، والمثل العامى يقول «المركب اللى لها ريسين تغرق»..

وجاء فى مجلة أكتوبر ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٢ ضمن مذكرات موشيه شاسون سفير اسرائيل فى مصر فى الفترة من ١٩٨١ ـ ١٩٨٨ فى كلمة ألقاها أمام د/ يوسف والى وزير الزراعة فى حفل أقامه لوداعه عند مغادرة مصر يقول فيها: «وواصلت حديثى أمام الوزير وطاقم وزارته والفلاحين المصريين» بقولى: «إن المثل المصرى

يقول» «من شرب من ماء النيل عاد إلى مصر». وأنا هنا أودع مصر ولدى منها أصدقاء، وعند عودتى سأراها بالتأكيد وهى مستمرة فى نموها وازدهارها وجريها قدما إلى الأمام..

ولاشك أن الاشارات السابقة تحمل دلالات كثيرة فهى لدى السياسى دليل عمل وقرار، ولدى الاقتصادى نصيحة، ولدى رجل الدين نصيحة، ولدى الصحافة حركة ثقافية يوميه، ولدى الغريب وسيلة للتقرب وتبادل المشاعر والود أو وسيلة لحب الاستطلاع..

لقد صدر كتابى «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» عن هيئة الكتاب ١٩٧٢ وأخذت أراقب حركة البيع وفى أحدى المرات سألت زميلى[١]. فى أحد مراكز البيع التابعة للهيئة فأخبرنى أن أول كمية بيعت من هذا الكتاب اشترتها مكتبة الكونجرس الأمريكى وأعطائى رقما لم أصدقه ولا داعى لذكره، وبعد فترة وجدت أن الاتحاد السوفيتى آنذاك أشترى كمية كبيرة أيضا.. وعلينا أن نلاحظ الظروف التى كانت تمر بها مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر وموقفه من الكتلتين والصخب السياسى الذى كان موجودا على المستوى العالمى وكتلة عدم الانحياز وتحرير أفريقيا.. إلخ

ولا شك أن الهدف من الإهتمام بالكتاب واضح الاتجاه وهو الشخصية المصرية ـ ومما يشد الانتباه أيضا أنه بعد عشرين عاما من صدور هذا الكتاب (١٩٩٢) ولم يكن لدى إلا نسخة وحيدة وكنت أتابع العثور على نسخة أخرى على سور الأزبكية ـ قبيل انتقاله إلى حى الحسين ـ حتى عثرت على نسخة أخرى معروضة على صدر أحدى المكتبات وبعد أن اشتريتها سألت البائع ـ وهو يعمل مفتشا للغة العربية ـ عن نوعية القارئ الذى يستهويه هذا الكتاب فقال: أن العرب هم أكثر احتفالا بهذا الموضوع وأيضا الاوربى المستعرب، ولاشك أن إنتباه الأجانب إلى هذه النصوص عبارة عن سلاح ذو حدين:

(١) عملت فى هيئة الكتاب منذ أنشائها وكانت بداية حياتى الوظيفية فى الادارة العامة للثقافة سنة ١٩٦٠ التى تحولت إلى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر وتحولت إلى هيئة الكتاب وتركتها إلى اتحاد الاذاعة والتليفزيون ١٩٧١ حتى تركت العمل الوظيفى فى ١٣ يناير ١٩٩٤. هذا فى مصر وقد كنت أستاذ الأدب بجامعتى الجزائر وقسنطينة بجمهورية الجزائر فى الفترة من ١٩٧٦ - ١٩٨٧.

أحدهما: الاهتمام الناتج عن الإعجاب أو حب المعرفة وخاصة بالنسبة لمجتمع يقع فى موقع فريد وله تاريخ عريق ويثير خيال البشر ويحرضهم على معرفة الأحفاد..

الثانى: محاولة استكشاف ما فى داخل هذه النصوص من سلبيات وخاصة عند المغرضين أو الموتورين أو المنافسين أو خدمة لأغراض سياسية أو اقتصادية وهذا ما يدفعنا إلى أن نقدم هذه النصوص ونفسرها ونحن أقدر على معرفة المغزى والهدف وعلى تقديم أنفسنا بأنفسنا..

وفى عام ١٩٩٣ دعيت للاشتراك فى أعمال المؤتمر السنوى السابع للبحوث السياسية الذى عقد بمركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة فى الفترة من ٤ ـ ٧ ديسمبر ١٩٩٣ وكان المؤتمر بعنوان «الثقافة السياسية فى مصر بين الاستمرارية والتغير» واشتركت فيه ببحث بعنوان «المفاهيم السياسية فى المثل الشعبى»، وفى أحدى فترات الاستراحة كنت أجلس مع د/ يونان لبيب رزق أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس وعرضت عليه فكرة أشارت إليها نصوص الامثال وتتمثل فى مفردات معينة هى: السيد/ العبد ـ الغنى/ الفقير ـ أمير/ غفير الست/ الخدامة ـ الحاكم المحكوم.... إلخ وكلها تقطع بأن المجتمع المصرى يتكون من طبقتين، وأن الطبقة الوسطى ليس لها وجود فرد الدكتور يونان بقوله «وهذه هى مشكلة مصر الأزلية حتى الان»، وقارن بين انطلاق اليابان عند اتصالها بالحضارة الحديثة لوجود طبقة وسطى امتلكت الزمام ووازنت بين الناس اللى فوق والناس اللى تحت بينما لا توجد هذه الطبقة فى مصر وهو ما يعيقها حتى الآن عن تقدم الصفوف.

وأعتقد أنه بقدر ما من التأمل سوف نجد أن هذه النتيجة أقرب إلى الصحة.. فعلى سبيل المثال فإن طبقة الفلاحين كلها كانت تحت خط الفقر ومعها طبقة الموظفين أو ما يدخل ضمن الطبقة الوسطى أما على الجانب التعليمى أو الثقافى فإن نسبة كبيرة، تتخلف فى هذا المجال وقس على ذلك فى كافة المجالات مما يقطع بوجود فوارق كبيرة، وهناك أيضا من يركب المرسيدس بـ ١,٦مليون جنيه وبجانبه مائة من الناس تنحشر فى أوتوبيس النقل العام القديم والذى لا يتعدى ثمنه أربعين الفا من الجنيهات بنسبة ١/ ٤٠٠٠ تقريبا..

وفى مجال المأوى أو السكن فتوجد الشقة التى بيعت بـ ٣٨ مليون جنيه سنة ١٩٩٥ دون التأثيث ويسكنها ثلاثة أو أربعة أفراد ومصريون آخرون ينحشرون فى حجرة ثمانية أفراد أو أكثر إيجارها ثلاثة أو أربعة جنيهات بنسبة ١ : ١٠ مليون أو أكثر من ذلك بكثير بعد التأثيث وتزيد النسبة إذا جرت المقارنة مع سكان الريف أو الصعيد..

وقد نشرت جريدة الأهرام ٣/ ٥/ ١٩٩٥ فقرة تحت عنوان «حلال لكن حرام» جاء فيها «كشف جهاز المحاسبات عن أن بعض الموظفين الكبار فى بعض الهيئات الاقتصادية يصل مرتبه إلى ٣٠ ألف جنيه فى الشهر بواقع ألف جنيه فى اليوم علما بأن هذا الموظف لم يسرق مليما واحدا من هذا المرتب، والجدير بالذكر أن متوسط دخل الفرد فى مصر فى الشهر حوالى ٢٥٠ جنيها إذن فى مقابل هذا الكبير ١٢٠ مواطنا يعيشون بلا دخل طبقا للارقام السكانية.. هذا الموظف يتقاضى يوم الإجازة دخل أسرة يعولها مدير عام بالدولة وإحنا عندنا ١٣٤ يوما أجازة فى السنة..

ونحن عندما نود هذه البيانات الدائرة فى الصحافة اليومية فى هذا المجال إنما نؤكد ما سبق الإشارة إليه من أن النصوص المثلية أنما تعبر عن ايقاع الحياة، هذا الايقاع الحياتى الذى ترصده الصحافة اليومية كتعبير عن الثقافة الشعبية والمدرسية فى آن واحد..

* * *

هذه الموسوعة:

لقد جمعنا فى هذه الموسوعة حتى الآن عشرة آلاف مثل أو عشرة آلاف فكرة مصرية صميمة من الذهب المحلى الخام الذى لا يحمل شوائب فكرية خارجية وهى ما تميز الهوية الوطنية عن غيرها.. ومن ناحية أخرى فإن عشرة آلاف نص ليست هى كل النصوص الشائعة فى المجتمع المصرى، فالصعيد بكامله بعيد عن الإمكانات والأمر كذلك بالنسبة للاطراف كالسواحل والصحارى وسيناء.. وهذه الأماكن لا يجمع نصوصها إلا الذين يعيشون هناك فهم أقدر على إنجاز هذا العمل..

ومع ذلك فيمكن القول أن هذه الموسوعة تعبر عن القطاع الكبير فى المجتمع

ويمكن أن تكون عنصر تحريض على الجمع واستكمال الرسالة ولو استطاع دارس آخر أن يستكمل هذا العدد بعشرة آلاف نص آخر لتوفر لدينا كم كبير من الثقافة المصرية التى تعبر عن فلسفة الفكر المصرى الصميم.. وإن مجرد تجميع هذه المادة الثقافية سوف يقود إلى بحوث ودراسات وهذا غاية أملنا إذا أردنا خدمة هذا الشعب.. فهذه النصوص تتوفر على كم كبير من الإشارات أو المداخل أو الشروط الحاكمة فى السلوك والضمير والمعتقد أو فلسفة الشخصية، كما يمكن أن تقود إلى دراسات فى علم الأدب واللغويات وغيرها..

ومن جانبا فقد قلنا فى السطور الأخيرة من كتاب «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» «والواضح بعد كل ذلك أننا لم نقل كل ما تحدثت عنه الأمثال إلا أنها أشارت إلى دقائق حياة الشعب المصرى ـ الأصيل ـ على وجه التقريب..

ومن هنا فإن الموضوع أكبر من أن يستوعبه كتاب كهذا لأنه يتعلق بحياة شعب عريق قديم قدم الحضارة التى عثر عليها الإنسان. ولعلنا بذلك نكون قد بدأنا الطريق ونضيف أنه حتى الآن فإن كل ما كتبناه فى هذا المجال هو محاولة للاقتراب، ومع ذلك فإن الهدف فى المرحلة التالية ـ هو إخضاع هذه النصوص للدرس..

ومن ناحية أخرى فقد سجلنا مع هذه النصوص بعض الشروح الضرورية لأنها تكشف الأدوار أو المناخ أو ما نسميه «بالمضرب»، وكل ما نهدف إليه هو إبراز الشخصية من خلال النصوص وإبراز الامثال من خلال السياق العام ونحن نحاول تقديم شخصية المواطن العادية من خلال ظروفه..

إن هذه الموسوعة هى الأولى التى حاولت اصطياد هذا الكم من النصوص وتسجيلها مكتوبة لكى تنهض كدليل على الماضى المتفاعل مع الحاضر ودليل عمل للمصريين اللاحقين ونحسب أن هذه الموسوعة هى الوحيدة فى اللغة العربية التى احتوت على هذا الكم..

كلمة أخيرة هى أقرب إلى الاستفهام أو محاولة المعرفة ويمكن اخضاعها للدرس وتتمثل فى السؤال:

هل هناك فرق بين الاقوال السائرة أو التعبيرات السائرة والأمثال؟..

وفى هذا المجال يمكن أن نقدم رأيا هو أقرب إلى الاجتهاد ويتمثل فى أن التعبيرات

أو الاقوال السائرة التى لا تعطى معنى بمفردها بعد انتزاعها من سياق الكلام هذه الاقوال يمكن أن تكون محل درس لدى اللغويين بينما نلاحظ أن الجمل التى تؤدى معنى بذاتها أو ضمن السياق أقرب إلى الكمال أو الاستقلال هى الأمثال. . وهى ما تدخل ضمن هذه الموسوعة ومما يؤيد ذلك أن الأمثال قد تؤدى عدة تفسيرات وفى بعض الأحيان قد تحمل الجملة المثلية عدة معان وقد تستخدم فى أكثر من حالة لأن انفرادها ساعدها على اكتمال التكوين. .

إن القول السائر والمثل السائر كلاهما يسير بين الناس. الأول يسير من خلال الحوار أو السياق العام والثانى قد يسير من خلال الحوار أو السياق وقد ينتزع ويسير بمفرده ويصير كالحكمة التى تعبر عن فلسفة، وهناك مناطق تماس كثيرة بينهما وهى التى أوجدت الغموض والبلبلة، ومع ذلك فإن القول السائر يمكن أن يتحول إلى مثل، وقد يجرى عليه الشعبيون بعض التعديلات المناسبة لكى يستقل بنفسه وهناك الكثير من النصوص التى تشير إلى ذلك ولكن لا يحدث العكس بمعنى أن القول السائر قد يتحول إلى مثل أما المثل فلا يتحول إلى قول سائر، ولكن فى مرحلة أخرى قد تنشطر الجملة المثلية إلى مثلين مستقلين. . ومع ذلك فإن هذا الرأى يمكن أن يكون محل دراسة مستقلة. .

وفقنا الله لخدمة مصرنا العزيزة...

دكتور

إبراهيم أحمد شعلان